الطرق الصوفية في الجزائر

د/عبد الكريم بليل/ قسم علم الاجتماع/ جامعة الشاذلي بن جديد/ الطارف.

ملخص:

تمثل الطرق الصوفية إحدى سبل نشر الدعوة و التوعية في العالم الإسلامي، و قد حظيت بدعم شعبوي بالجزائر و ساهمت في نشر العلم و المعرفة، و حافظت على قيمة إسلامية و أعراف عربية و أمازيغية بالمجتمع؛ و هنا نعرف بأهم الطرق باختصار، مع الترجمة لمشايخها.

Summary:

Sufism is one of the methods of propagating advocacy and awareness in the Islamic world, with the support of the populist in Algeria, and contributed to the dissemination of knowledge and knowledge, and maintained the values of Islamic and Arab and Amazigh traditions of society; Here we present the most important Sufi methods in short, with the sheikhs.

كلمات مفتاحية: التصوف، الصوفية، الطريقة، الزاوية، التعليم.

مقدمة:

يمثل التصوف نزعة إنسانية، تعاقب ظهورها في حضارات مختلفة، بصور متفاوتة في التعبير عن شوق الروح للتطهر و الزهد فيما يتسابق عليه الناس من خضرة ونضرة الدنيا، و رغبة في التعالي ن شهوات المادة، و نبذ حطام اللذات؛ بغية الإرتقاء في سلم الصفاء الروحي، و التسامي في مراتب الكمال الخلقي.

و لم يكن المسلمون بدعا في نزوع طائفة منهم فرادى و زرافات لنبذ زخرف الدنيا، و السعي نحو زخرف الروح، بيد أن لكلٍ خصائص تميزه عن غيره، من اختلاف وسائل، و

مفارقة في الغايات، فيصير لكل حضارة هويتها في ابراز تلك النزعة الإنسانية، بأن تصبغها بلغة و مفردات و عقائد تناسب نسقها العام الديني و الحضاري.

و التصوف كحركة دينية انتشرت عهد الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري؛ كنزعات فردية تدعو إلى الزهد، و إن كان لها ارهاصات سابقة. و عصر **بني العباس** مبلغ الفتوة للحضارة الإسلامية، و فيه بلغت العلوم شأوا عظيما، و فتحت أبواب الدنيا على المسلمين، و من سنن الحضارات إن بلغت الترف المادي والعلمي؛ أن تولد الفلسفة في العلوم.

و كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري، ظهر تيار زاهد في الدنيا بما فيها، و أصحابه قد يكون بعضهم ممن غرف من الدنيا حد التخم؛ فعافها بعد أن كان لها سيد، كالملوك و الأمراء و كبار التجار و الأثرياء، و آخرون سحقتهم السنون حتى انقطع رجاؤهم من الدنيا؛ فأملوا نصيبا لهم في الدار الآخرة، و ذي طائفة عاملة ناصبة، لا تألوا جهدا في كد التعبد؛ و طول التهجد، و لا تنوء بنكد العيش؛ و لا تمل قليلا يقيم الصلب ليهب، و قد عرف هذا التوجه بالتصوف؛ و ما فتئ أن انتشر من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه.

أولا: نشأة الطرق الصوفية في الجزائر.

لم يظهر التصوف في المغرب العربي معاصرا للمشرق العربي؛ بل تأخر حتى عهد **المرابطين** في أوائل القرن الخامس الهجري، و لم يكن قد عرف علوم **المكاشفات** و **الحقائق**، بل تمثل في صور الزهد و النسك و المجاهدة، فكان هنالك اختلاط بين الصوفية و الفقهاء، و لم يتميز كل فريق عن الآخر، لأنهم لم يشهدوا الصراع القائم في المشرق بين الفقهاء و الصوفية، لبعد التصوف المغاربي عن المظاهر المخالفة للشريعة، و عن دعاوى الباطن، و التفريق بين الشريعة و الحقيقة، فكان ظاهر للباحثين أن أكثر

المشايخ الصوفية بالمغرب العربي من الفقهاء، و أن أكثر الطرق الصوفية كان لها اهتمام بالغ بالعلوم و الفنون، فكان بينهم المحدثون و القراء و الفقهاء و المتكلمون و اللغويون و المفسرون.

في منتصف القرن الخامس الهجري دخلت بعض الكتب الصوفية من المشرق، و فوجئ علماء المغرب بما في كتاب **"الإحياء" لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي**، فأنكروا ما فيه، و تبرؤوا من مقالات التصوف به، و عارضه كثير من الصوفية، و أفتى القضاة و على رأسهم القاضي **عياض المالكي** صاحب مصنف " **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**" بحرق الكتاب و منع قراءته.

يقسم بعض الباحثين أطوار التصوف في المغرب العربي إلى أربعة عصور:

العصر الأول: يتمثل في زمن **أبي مدين**، في القرن الخامس.

العصر الثاني: من القرن السادس إلى السابع زمن **الشاذلي**.

العصر الثالث: من القرن السابع إلى التاسع، و هو عهد **الجزولي**.

العصر الرابع: من التاسع إلى الرابع عشر[1].

و قد ظهرت الطرق الصوفية في الجزائر في حوالي القرن السادس الهجري، و البعض يؤرخ لها منذ عهد **أبي مدين الغوث (ت 594هـ/ 1197م)**[2]. فهو واضع أول طريقة عرفت هنا **بالجزائر** و هي الطريقة **المدينية**، التي نشرها في **بجاية** و ضواحيها، و تخرج على يديه المئات بل الآلاف من الطلبة ممن لهم الولاية [3]، و هو تتلمذ على يد الشيخ **عبد القادر الجيلاني** و ألبسه خرقة الصوفية [4].

و يعود انتشار التصوف السني في بداية العهد **الموحدي (514 – 668 هـ/1120 – 1269 م)** إلى الأمن و الاستقرار اللذين تحققا في ظل الوحدة **المغاربية** و السلطة المركزية تحت حكم **الموحدين**، و عرفت تطورها الكامل في القرن 14م أثناء

الفترة **المرينية (642 – 869 هـ/1244 – 1464 م)**، و حكم **بني عبد الوادي (بنو زيان) (633 – 962 هـ/1235 – 1554 م)**.

و حازت الطرق درجة رفيعة في المجتمع الجزائري، لمشاركتها في الحياة اليومية للمجتمع و قيامها بمهام: الإرشاد، التعليم، و القضاء، و إصلاح ذات البين، و الإيواء، و الإطعام. فكانت الزوايا نقطة تلاقي أطراف متنوعة و مؤسسات عدة اجتماعية و سياسية و عسكرية و دينية، فهي مركز الدائرة و محور اهتمام السلاطين و الرعية على حد سواء. و ظلت وسيطا بين الحكام و الرعايا، تسعى لقضاء مصالح الطبقات الكادحة المحرومة، و تعمل على معالجة أوضاع المسلمين بطريقتها الخاصة. تنشط في الأرياف و القرى و المداشر التي كانت بعيدة عن رعاية الدولة، فسدَّت الفراغ الناشئ عن بعد المسافات بين الحواضر.

باعتبار التعليم ميدانا ضروريا و حتميا لتطوير الحركة الفكرية و العلمية، فقد كان أحد الميادين التي تجلى فيها النشاط الإيجابي للصوفية، و برزت فيه الزوايا كمعاهد لتخريج الطلبة المتخصصين في علوم شتى، لما حوته الزوايا من مشايخ و مكتبات. و يعود اهتمام الناس في تلك المرحلة بالتعليم بالزوايا إلى جملة من العوامل:

1- تسابق الأولياء في توجيه أبنائهم لتعلم الفقه – علم الظاهر– قصد بلوغ المناصب العليا عند الحكام كالقضاء و الحسبة و مختلف الخطط الإدارية، فاتجه التعليم في المغرب وجهة وظيفية.

غير أن المناهج التعليمية الصوفية في الزوايا كانت ذات وجهة علمية تربوية أولا و قبل كل شيء، ثم وجهة وظيفية لاحقا، لمن تفوق و توسع أكثر، و تيسر له الالتحاق بالمؤسسات الإدارية أو القضائية. و إن كان الكثير من مشايخ التصوف ينصرفون عن المناصب الرسمية، كما أن من مهام الزاوية الفصل في الخصومات، ثم توسع دورها في

القضاء أكثر في مراحل تطور أدوارها لأسباب عدة، منها أن الزوايا كانت أكثر انتشارا و قربا من المحاكم و مراكز القضاء الرسمية الموجودة في الحواضر وفقط، و مشايخ الصوفية كانت لهم هيبة و وقار في قلوب الناس أكثر من غيرهم، فكان لفصلهم في المنازعات قبولا أوسع، و غالب الناس من البسطاء يميلون لفصل المنازعات بالتراضي و الود، فيلجؤون للمشايخ لتحسن النيات و تطيب الأنفس. و في المنازعات القبلية تمتعت الزوايا بهيبة أكثر، و الزاما روحيا أكبر على كبراء القبيلة.

2- اقتصار التعليم على الفئات الاجتماعية الميسورة، حيث بإمكانها الإنفاق على أبنائها، لأن أجرة المعلم في سائر أنحاء المغرب حتى القرن 6هـ يدفعها الولي. بينما كانت الزوايا تقدم التعليم مجانا، مما ساعد على تعميم التعليم بين جميع فئات المجتمع، مع توفير الزاوية للمسكن و المأكل للطلبة فجعلها قطبا يجذب الطبقات الفقيرة لتدفع بأبنائها للدراسة على نفقة الزاوية، فخففت أعباء السفر و تكاليف العيش و مصاريف الدراسة، بل كانت الزاوية تمنح للطلب في العطل مصاريف السفر لأهلهم، **و هي من أولى الأفكار عن " المنح الجامعية" للطلبة.**

3- تدخل الدول المتعاقبة في سياسة التعليم و مناهجه و مقرراته، فكانت كل دولة توجه دين الناس على دين ملوكها، **فالمرابطين** اهتموا بفقه الفروع فنظروا له و دعموا المذهب **المالكي** أكثر، و منعوا كتب الفلسفة و المنطق، و **الموحدين** اهتموا بفقه الحديث و علم الكلام و الفلسفة، فحضوا الطلبة و مولوا المدارس في إطار هذا التوجه، و هكذا العادة مع من تلاهم من الحكام.

أما الزوايا فجعل المتصوفة يعملون فيها على إخراج التعليم من طوق الوصاية و من دائرته الوظيفية إلى إطاره التربوي و العلمي، فضلا عن هدفهم في تعميمه على كل الفئات لأن هنالك شريحة اجتماعية كبيرة عاجزة عن دفع مستحقاته المالية.

4- غالب الزوايا الرئيسة كانت تنشأ من مشايخ نهلوا من العلوم قدرا، و شدوا الرحال شرقا و غربا، و بلغوا من التحصيل ما جعلهم في حاجة لبذل ما عندهم من العلم للناس، و تكوين طلبة لهم ليرثوا علمهم و ينشروه بين الناس، ناهيك عن رغبة المشايخ في تطبيق مناهجهم و تجاربهم التربوية من خلال تلقين مختلف العلوم النقلية و العقلية.

فالتصوف كدعوة لابد له من نشاط جماعي و اقتراب من المجتمع بمختلف طبقاته، ليمارس دوره التربوي و الإرشادي، و هنا برز **التصوف الشعبي**، و أولى ارهاصاته البارزة انتشار الزوايا في أرجاء البلاد، و توسع المهام المنوطة بها.

ثانيا: أهم الطرق الصوفية بالجزائر.

برزت في الجزائر طرق صوفية عديدة، بصفتها منطقة المغرب الأوسط في عهد **المرابطين** (**448 – 541 هـ/1056 – 1147 م**)، ثم **الموحدين**(**514 – 668 هـ/1120 – 1269 م**)، خاصة **ببجاية** التي كانت تمثل أكبر الحواضر وقتها، و كانت عاصمة **الحماديين** (**398 – 547 هـ/1007 – 1152 م**) التابعين أصالة للدولة **الزيرية بتونس** (**362 – 563 هـ/972 – 1167 م**)، و ازداد علوها أيام الدولة **الحفصية** (**625 – 941 هـ/1227 – 1534 م**) لأنها على تخوم حدودها، ثم **تلمسان** التي سطعها نجمها أكثر أيام الدولة **الزيانية** (**633 – 962 هـ/1235 – 1554 م**) باتخاذها عاصمة.

و لم يكن هنالك كيان لدولة ذات حدود تمثل **الجزائر**، بل كانت إما خاضعة لعواصم **بتونس**، أو أخرى **بالمغرب**، أو مقسمة بين **تونس** و **المغرب**، أو بعض الدول التي كانت تشغل مساحة معينة من مساحة الدولة **الجزائرية** حاليا، كدولة **الرستميين** (**160 – 296 هـ/776 – 908 م**) أو **الحماديين** أو **الزيانيين**.

و أشهر الطرق ثمانية: **القادرية، الشاذلية، الخلوتية الرحمانية، التيجانية، العيساوية،**

الطيبية، السنوسية، العمارية. و امتازت هذه الطرق بحركة علمية و اجتماعية، فلم تكن منزوية عن العامة و المجتمع السياسي أو الديني أو حتى العسكري، مما أكسبها مكانة في قلوب الناس، و حظوة لدى الحكام، فكانت تتصدر لأدوار عديدة هامة منها:

الإرشاد و التوجيه.

التربية و التعليم .

القضاء الشرعي.

إصلاح ذات البين.

الرعاية الاجتماعية لليتامى و المشردين و طلبة العلم الفقراء و عابري السبيل.

تحريض الناس على الجهاد و القيام بحراسة الحدود في الرباط.

غير أن أهم انجازات الطرق الصوفية؛ يكمن في الانتشار في البوادي و القرى النائية، التي كانت تعاني من الإهمال المادي و العلمي، كما سعت لتعميم التعليم بجعله مجاني، بل أضافت تكفل الطرق بالطلبة عبر موردها ومؤسساتها المتمثلة في الزوايا، فكان لها القدرة على ملأ الفراغ الثقافي و الروحي و حتى السياسي، الناتج عن اتساع المساحة، وتباعد التجمعات السكانية و المركزية في الحكم، وتمركز غالبية العلماء والدعاة في الحواضر الكبرى. فكانت الطرق الصوفية مؤسسة للتأطير، قادرة على جمع المسلمين وحفظ مصالحهم و توجيههم. و ميزتها آنذاك: بعدها عن القرار السياسي، والنأي بالطلبة عن مخالطة أولي السلطان، تجنبا للتحكم في برامجها أو توجيهاتها التربوية، فكانت الطرق تمتلك هيبة و احتراما، جعلها تحصل على سلطة مركزية تلتقي عندها جميع الأطراف.

يذكر **سعد الله أبو القاسم** أن: " عدد الطرق الصوفية الفاعلة في الجزائر بلغ أكثر من ستة وعشرين طريقة، منها فقط حوالي أربعة أنشئت في العهد الاستعماري، **"كالسنوسية"** و**"العليوية"**. والباقي كان موجودا منذ العهد **العثماني** (**924 هـ/1518**

م/ 1246هـ /1830 م). ومن هذا العدد ما هو مؤسس في المغرب **كالطيبية** و**العيسوية** و**الدرقاوية**، وما هو مؤسس في المشرق **كالقادرية** "[5]. ومن أوائل الطرق في **الجزائر** و أشهرها ما يلي:

الطريقة المدينية:

تنسب **لأبي مدين شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني (594 هـ/ 1198 م)**، " الشيخ الفقيه المحقق، الواصل القطب، شيخ مشائخ الإسلام في عصره، إمام العباد و الزهاد و خاصة الخلصاء، من فضلاء العباد "[6].

أفرد ذكره و بسط أخباره **أبو العباس أحمد بن الخطيب** الشهير **بابن قنفذ القسنطيني** في كتابه " **أنس الفقير و عز الحقير**"، و ترجم له الكثير.

نزل في حواضر **المغرب الأقصى، كطنجة** و **سبتة** و **مراكش**، و **فاس**[7]، و سكن **بجاية** و كثر أتباعه حتى خافه **السلطان يعقوب المنصور (554 – 595 هـ = 1160 – 1199 م)** [8]، توفي **بتلمسان**، و قد قارب الثمانين أو تجاوزها. له " **مفاتيح الغيب لإزالة الريب و ستر العيب**" [9].

أخذ علم التصوف عن **أبي عبد الله الدقاق و أبي الحسن السلاوي**[10]، و أخذ في المجاهدات و رياضة النفس في جبال **إيروجان** جنوب **مكناسة** على يد الصوفي **المربي أبي يعزى (ت 572هـ)**[11]، ثم قرأ الرعاية **للمحاسبي** و "**إحياء علوم الدين" للغزالي** على الصوفي **أبي الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم**[12].

و "**الطريقة المدينية**" هي أول ما عرفت الجزائر من الطرق، و يعد أبو مدين الغوث، " **لسان الطريقة الصوفية و محييها ببلاد المغرب**"، و شيخ مشائخ المغرب، و أحد أكابر عباده في وقته، و يعد أشهر ممثل للتيار الصوفي السني في بلاد المغرب الإسلامي ككل .

و " يبين لنا كتاب التراجم من العرب على أن أبا مدين كان متفننا في علوم الإسلام المختلفة نقليها و عقليها.

و نرى مما تقدم أن أبا مدين كان بفاس في الوقت الذي انبعثت فيه مذاهب الموحدين في بلاد المغرب، و الذي نهضت فيه العلوم الكلامية و الفقهية بتأثير تلك المذاهب.

و لكن يظهر أن الطالب الأندلسي الحديث لم يبد أي ميل نحو هذه الأنظار الجديدة لأن ذوقه وجهه إلى التصوف بصفة خاصة، و ساقه في هذا الطريق الشيخ أبو يعزى، الذي بلغ به إلى مرتبة الصوفي الكامل بالقيام و الصلاة و التقشف المتواصل الشديد و لم يجد أبو مدين – لفقره المدقع– أية صعوبة في التخلص من هذا العالم و من ملذاته الزائلة، فتنقل متدرجا في كل مراتب الصوفية حتى بلغ مرتبة " القطب" و " الغوث" [13].

استوطن أبو مدين مدينة بجاية، و كانت تحت سلطة الموحدين، فقضى بها أكثر من خمسة عشر عاما، يدرس بها بعض كتب التصوف، و ذلك بزاوية أبي زكريا الزواوي بحومة اللؤلؤة. و منهجيته تختلف عما تلقاه في المدارس الثلاث، حيث مزج بين التصوف المغربي و النظريات الصوفية الشرقية و الأندلسية. وثار على أسلوب المجاهدات النفسية القاسية للمدرسة المغربية[14].

فغير من معنى الزهد و التقشف السطحي القائم على التخلي عن ملذات الدنيا و زينتها، فلبس الثياب الحسنة و تزين برائحة المسك و الطيب حتى شبه الملوك[15].

و حصر معنى الزهد و التقشف في تطهير القلب من حب الدنيا، و ملئه بحب الله تعالى، و يتم بالذكر. و هذا المنحى الصوفي كان له أثر عميق على **المدينيين** في بجاية و تلمسان، خاصة متصوفة أسرة المرازقة، و طريقة أبي الحسن الشاذلي. كما اختصر نظريات التصوف المشرقي و الأندلسي في عبارات واضحة و بسيطة، لكنها عميقة [16].

و هو ما اشتهر بالطريقة المدينية فيما بعد، و انتسب إليها العديد من العلماء و الفقهاء.

و لما اشتهر أمره وشى به بعض علماء الظاهر عند الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي (ت 595هـ)، فبعث إليه للقدوم ليختبره، و لما بلغ **"وادي يسر"** من حوز **"تلمسان"** لاحت له **"رابطة العباد"** قال لأصحابه: " ما أحلى هذا الموضع للرقاد، فتوفي هناك، و دفن بالعباد "[17].

– التصوف عند أبي مدين:

تسليم كلك لله وحده، و هو الطريق الموصل إلى معرفة الله، و يجب لبلوغ هذه الغاية قطع كل العلائق. فكان يقول: " التعظيم إمتلاء القلب بإجلال الرب "، " جعل الله قلوب أهل الدنيا محلا للغفلة و الوسواس، و قلوب العارفين محلا للذكر و الاستئناس "[18].

و هو عنده لا يكون إلا بعد تحصيل العلوم الشرعية. " و حتى يترجم هذه العلمية إلى ملموس، اعتمد المسجد و الرابطة و بيته إطارا لنشاطه العلمي و الصوفي. فهو يدرس الوعظ بعد صلاة الصبح بمسجد أبي زكريا يحي الزواوي بحومة اللؤلؤة، ينشر من خلاله طريقته الصوفية البسيطة "[19].

و يلقن في بيته و مسجده الثاني العلوم و المعارف، كتفسير القرءان، و تدريس الحديث و الفقه، و إطلاع المريدين و الطلبة على حيثيات مصنفات التصوف الشرقية كالرسالة القشيرية و الإحياء[20]، و المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، حتى يوسع من مداركهم و يرشدهم إلى أصول طريقته و منابعها الأصلية، و يراقب الجانب التطبيقي من أورادهم برابطة ابن الزيات[21].

و كان الشيخ يقرر فتاويه على المذهب المالكي[22]، مع تحصيله للحديث؛ فقد أخذ سنن الترمذي عن الصوفي الحسن بن علي بن غالب [23].

و اشترط الشيخ في كل من يريد الولوج إلى رحاب التصوف أن تتوفر فيه أربعة شروط

هي: الزهد و العلم و التوكل و اليقين[24].

و على كل شيخ مرب أن يكون عالما بالفقه و التصوف، حتى لا ينحرف إلى البدع، و أن يكلف تلامذته فقط بالأوراد التي يعلمها، و أن يتجافى عن أخطائهم و يسامحهم في ذلك.

و لعل أبرز عامل جعل طريقة أبي مدين ترقى إلى مستوى أخلاقي و فكري رفيع هو التزامها بالقرءان و السنة [25].

و مبنى طريقته على الزهد و التوكل، و قد وصف من قبل الذين ترجموا له بأنه كان زاهدا فاضلا عارفا بالله، و أقام مدرسته على هذا الأساس، و جل من انتسب إليه يعتبر من الزهاد.

و عبر عن ذلك بقوله: " أسس هذا الشأن – أي التصوف– على الزهد و الاجتهاد "[26].

و قوله: " لا يسموا إلا من أوتي قلبا سليما، الذي يسلم مما سواه، و لا يكون في الوعاء إلا مما جعل فيه مولاه، فقلب العارف يسرح في ملكوت بلا شك "[27].

و جمع الشيخ أبو مدين بين أفكار المدارس الصوفية الثلاث: التصوف المغربي، التصوف المشرقي، التصوف الأندلسي " **ابن العريف** "[28].

و استمرت طريقته قائمة في بجاية و غيرها من المدن المغربية، ممثلة في محمد بن علي الصنهاجي القلعي (ت628هـ)، و محمد بن إبراهيم الأنصاري أبو علي منصور المليانى.

و قد أخرج أبو مدين التصوف من داخل حواضر المغرب الأوسط كقلعة بني حماد و بجاية و تلمسان و قسنطينة و بونة أواخر القرن السادس الهجري إلى البوادي و الأرياف، و بهذا يكون قد فتح باب التصوف الشعبي على مصراعيه أمام العامة .

و من أشهر تلامذته: **عبد الرزاق الجزولي، عبد السلام بن مشيش، يوسف الكومي**

شيخ **محي الدين بن عربي، محمد بن علي بن حماد الصنهاجي**.

و نقلوا فكره و طريقته إلى مختلف الأقطار التي حلوا بها مثل المغرب و الأندلس و مصر و بلاد الشام، فانتشرت في مناطق عديدة من العالم الإسلامي، و عرفت نهضة كبرى في عهد **عبد السلام بن مشيش** (ت 665هـ) ثم ازدادت نشاطا على يد **أبي الحسن الشاذلي**، شيخ الطائفة الشاذلية، و الذي نسبت إليه الطريقة فيما بعد.

الطريقة الزروقية:

تنسب إلى الولي الصالح العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بـ " زروق " (846 - 899 هـ/ 1442 - 1493 م).

و هو " الإمام العالم الفقيه المحدث الصوفي الولي الصالح الزاهد القطب الغوث العارف بالله الحاج الرحالة المشهور شرقاً و غرباً، ذو التصانيف العديدة و المناقب الحميدة و الفوائد العتيدة.

قد عرف بنفسه و أحواله و شيوخه في كناشته و غيرها، فقال: ولدت يوم الخميس طلوع الشمس ثامن و عشرين من المحرم سنة ست و أربعين و ثمانمائة.

ثم نقلني الله بعد بلوغي سادس عشر إلى القراءة، فقرأت الرسالة على الشيخين علي السطي و عبد الله الفخار قراءة بحث و تحقيق، و القرآن على جماعة منهم القوري و الزرهوني، و كان رجلاً صالحاً، و المجاصي، و الأستاذ الصغير بحرف نافع. و اشتغلت بالتصوف و التوحيد، فأخذت الرسالة القدسية و عقائد الطوسي على الشيخ عبد الرحمن المجدولي، و هو من تلاميذ الأبي، و بعض التنوير على الفوري، و سمعت عليه البخاري كثيراً. و تفقهت عليه في كل أحكام عبد الحق الصغرى و جامع الترمذي، و صحبت جماعة من المباركين لا تحصى كثرة بين فقيه و فقير. و أما تآليفه فكثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، و لا يخلو شيء منها عن فوائد غزيرة و تحقيقات مفيدة سيما في

التصوف، فقد انفرد بمعرفته وجودة التأليف فيه.. و هو آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة و الشريعة "[29].

و له تآليف عديدة منها:

شرحان على الرسالة.

شرح إرشاد ابن عسكر.

شرح مختصر خليل .

شرح الوغليسية.

شرح القرطبية.

شرح الغافقية.

شرح العقيدة القدسية للغزالي.

نيف و عشرون شرحاً على الحكم.

شرحان على حزب البحر.

شرح الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي.

شرح الحقائق و الدقائق للمقريزي.

شرح قطع الششتري.

شرح الأسماء الحسنى.

شرح المراصد في التصوف لشيخه ابن عقبة.

النصيحة الكافية لما خصه الله بالعافية.

إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح و التمكين.

القواعد في التصوف.

النصح الأنفع و الجنة للمعتصم من البدع بالسنة.

عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق.

" **ذكر حوادث الوقت** ": كتاب جليل فيه مائة فصل بين فيه البدع التي يفعلها فقراء الصوفية. و له تعليق لطيف على البخاري قدر عشرين كراساً اقتصر فيه على ضبط الألفاظ و تفسيرها. و جزء صغير في علم الحديث. و له رسائل كثيرة لأصحابه مشتملة على حكم و مواعظ و آداب و لطائف التصوف مع الاختصار، قل أن توجد لغيره[30].

توفي في تكرين من قرى مسراتة، من أعمال طرابلس الغرب [31].

و طريقة الزروقية طريقة صوفية سنية اشتهرت في المغرب الإسلامي، و تفرع عنها ثلاثة عشر فرعاً تعتبر امتداداً لها، و انتشرت في مصر و الحجاز و لبنان و فلسطين و جزيرة رودس و تشاد و النيجر.

أصول طريقته خمسة أشياء:

تقوى الله في السر و العلانية.

إتباع السنة في الأقوال و الأفعال.

الإعراض عن الخلق في الإقبال و الإدبار.

الرضا عن الله تعالى في القليل و الكثير.

الرجوع إلى الله تعالى في السراء و الضراء.

فتحقيق التقوى بالورع و الاستقامة.

و تحقيق السنة بالتحفظ و حسن الخلق.

و تحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر و التوكل.

و تحقيق الرضا عن الله بالقناعة و التفويض.

و تحقيق الرجوع إلى الله بالحمد و الشكر في السراء و اللجأ إليه في الضراء .

تفرعت عن الطريقة الزروقية ثلاث عشرة طريقة صوفية خلال الخمسة قرون الماضية، و من هذه الطرق: البكرية، العيساوية، الراشدية، السهلية، الشيخية، و الناصرية، الدرقاوية.

الطريقة اليوسفية:

تنسب إلى الشيخ الولي الصالح أبو العباس سيدي أحمد بن يوسف(927 هـ / 1521 م) الراشدي نسبا؛ المليانى دارا، " متصوف صالح، من أهل المغرب، تنسب إليه الطريقة اليوسفية، قال فيه صاحب لقط الفرائد: الرجل الصالح و حاشاه أن يقول ما قيل عنه "[32].

و هو من أعيان مشائخ المغرب العربي، و أحد أوتاد التصوف الإسلامي، و انتهت إليه تربية المريدين و رئاسة السالكين بـ " البلاد الراشدية " و المغرب بأسره، و اشتهر ذكره في الآفاق شرقا و غربا. ولد بقلعة بني راشد التي تقع بين غليزان و معسكر، تنتمي أسرته إلى بني مرين. و أخذ عن علماء تلمسان و وهران، ثم انتقل إلى بجاية أين تتلمذ للشيخ زروق، عارض المليانى الحكم المريني معارضة شديدة، و ذلك بسبب تحالف المرينيين مع الأسبان، و اتصل بالأتراك، و ساعدهم على مقاومة الأسبان. أسس زاويته بـ " رأس الماء" بوادي الشلف، و كون فيها المريدين.

اتصل بعلماء عصره مثل الخروبي و الخياط و غيرهما. و زار المشرق و تعرف على علمائه الكبار، ثم عاد إلى وطنه و راسل العلماء في تلمسان و فاس و القاهرة و دمشق.

أخذ عنه أحمد بن علي البوعمراني، محمد الشريف الزهار، أحمد بن المبارك الراشدي، محمد الصباغ، و غيرهم. و عم نفوذه الصحراء الجزائرية و المغرب الأقصى، و انتشرت طريقته اليوسفية الشاذلية و اشتهرت، **و كون عدد من أتباعه جماعة تسمى بالشراقة أو اليوسفية، و قد انحرفوا عن الدين فعاب عليه الفقهاء، إلا أن المليانى تبرأ منهم و قاومهم.**

توفي الشيخ أحمد بن يوسف في سنة(931هـ/ 1524م)، و دفنه ابنه محمد بن مرزوقة في مدينة مليانة. و نشر طريقته اليوسفية كبار تلامذته كالشيخ أحمد بن المبارك الراشدي (ق 10هـ/ 16م)، و الشيخ أحمد بن موسى الحسني "الكرزازي" (ت 1016هـ= 1608م)، و محمد بن عبد الجبار الفجيجي.

الطريقة القادرية:

انتشرت الطريقة القادرية في المغرب العربي عن طريقين هما: مصر و الأندلس، حيث استقر في مصر أحد أبناء الشيخ و هو الشيخ عيسى مؤلف كتاب " **لطائف الأنوار**" في التصوف.

أما عن طريق الأندلس فقد انتشرت عبر ذرية ابنه إبراهيم و عبد العزيز بعد هجرتهم من الأندلس لفاس.

و هنالك روايات على أن إبراهيم ابن الشيخ عبد القادر هاجر مباشر من المشرق لفاس ثم لمنطقة الأوراس بالجزائر، و أسس زاوية المنعة [33].

من أبرز رجالاتها: الشيخ المختار الكنتي (ت 1826م)، قُدر أتباعها في نهاية القرن التاسع عشر: 24 ألف مريد، 558 مقدم، 33 زاوية . كما مثلتها " زاوية القيطنة " على وادي الحمام التي أسسها الحاج مصطفى بن المختار الغريسي (جد الأمير عبد القادر) (ت 1200هـ/ 1784م)، و تولى أمرها والد الأمير عبد القادر الشيخ محيي الدين، ثم خلفه بعد وفاته ابنه الأكبر الشيخ محمد العيد (أخو الأمير الأكبر). قادت المقاومة في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر بزعامة الشيخ محي الدين بن مصطفى الغريسي و ابنه الأمير عبد القادر الجزائري، و تعاونت معها بقية الطرق . أورد **رين** إحصاء رسميا للطريقة سنة 1882م، حيث بلغ عدد الزوايا في الجزائر29 زاوية قادرية، و 268 ممقدما قادريا، و بلغ أتباعها14574خونيا[34].

الطريقة التيجانية:

أسسها أبي العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد الشريف التجاني (1150 – 1230هـ / 1737 – 1815م).

و هو " عالم بالأصول و الفروع، ملم بالأدب، من فقهاء المالكية. ولد في عين ماضي، و دخل فاس سنة 1171هـ و سمع بها شيئا من الحديث، ثم دخل تلمسان و درس بها. و حج سنة 1186هـ فمر بتونس و أقام بها مدة. و عاد الى فاس، ثم رحل الى "توات" و أُخرج منها، فاستقر بفاس (سنة 1213هـ) إلى أن توفي "[35].

تلقى العلوم و انخرط في سلك الصوفية صغيرا، حتى إذا توفي والده سافر إلى الحج في سنة 1186 هـ، حيث إلتقى في مكة بالشيخ أحمد بن عبد الله الهندي، و اجتمع في المدينة بالشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، فأخذ عنهما كثيرا من الأسرار. ثم ذهب إلى مصر فالتقى بالشيخ محمود الكردي، و بعد فترة من تلاقيهما؛ قال له الشيخ الكردي: أنت محبوب من الله، فما هو مطلبك ؟ قال التجاني: القطبانية العظمى. فقال له: لك أكثر من ذلك [36].

و ألف التيجاني في آداب و أسرار الطريقة كتابا دونه الحاج علي حرازم بن العربي برادة سماه

" **جواهر المعاني و بلوغ الأماني في فيضض أبي العباس التجاني**". و " اتصل أثناء سفره بأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الزواوي الأزهري مؤسس الطريقة الرحمانية، فأخذ عنه أوراد الطرقية الخلوتية "[37].

و تبرز صوفية التجانية في المصنف منبثقة عن صوفية محي الدين بن عربي في كتابه " فصوص الحكم"، و من كتاب عبد الكريم الجيلي " الإنسان الكامل"، أي أنها تقوم على نظرية وحدة الوجود، و الاعتقاد بالحقيقة المحمدية و أن الشيخ التيجاني يتلقى من الحقيقة

المحمدية ما تلقاه من الأسرار "يقظة لا مناما"، أي انه يرى النبي و يملي عليه النبي أسرار الطريقة و الشريعة مباشرة و معاينة [38].

من أوراد الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي " **الدور الأعلى**" و "**الكبريت الأحمر**" لابن عربي[39].

الطريقة الدرقاوية:

تفرعت عن الطريقة الشاذلية، و تعد من الإرث الصوفي الروحي لأبي مدين الغوث، و سميت بدرقاوة نسبة لشيخها العربي بن أحمد بن الحسين بن محمد يوسف الملقب " أبو درقاوى" الشريف الإدريسي(ت 1823م)[40].

و قد وجدت هذه الطريقة أتباعاً كثيرين في الجهات الوسطى و الغربية من البلاد الجزائرية بإقليم التيطري و الناحية الوهرانية. اشتهر العربي الدرقاوي بالإستقامة و الزهد في متاع الدنيا و احتقار السلطان، و ذلك ما أوصاه به شيخه لابن عبد الرحمن الفاسي، و يتميز أتباعه عن غيرهم بإعفاء اللحى الطويلة، و لبس الخرق و العقد ذي الحبات الخشبية الكبيرة و حمل العصا، و كان الواحد منه يسمى " **أبو دربالة** " أي صاحب الخرقة القديمة[41].

و قد بلغ عدد زوايا طريقة درقاوى في الجزائر حسب إحصاء عام 1882م 32 زواية يشرف عليها 286 مقدما، و 14574 مريدا، و أهم فروعها الكتانية و الحراقية و الهبرية[42].

الرحمانية:

تفرعت عن الطريقة الخلوتية و نسبت لمؤسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري الأزهري، المولود عام 1720م في قبيلة "آيت إسماعيل"، التي كانت في حلف قشتولة بقبائل جرجرة.

زاول دراسته بزاوية الشيخ "الصديق واعراب" في بني إيراثن، ثم واصل تعلمه في الجزائر العاصمة. و عام 1739م توجه للحج، و في العودة استقر بجامع الأزهر لفترة طويلة، و أصبح مريدا للشيخ الصوفي محمد بن سالم الحفناوي، و دخل بذلك الطريقة الخلوتية، و عهد إليه شيخه بالقيام بالدعوة في السودان و الهند؛ فنجح كثيرا[43].

و بعد ثلاثين عام من الغياب عن وطنه عاد بأمر من شيخه للقيام بنشر الطريقة في الجزائر. ثم أسس زاوية في مسقط رأسه "آيت إسماعيل"، و شرع في الدعوة، فالتف حوله جموع الناس و الأتباع و المريدون، و لقيت دعوته نجاحا كبيرا في منطقة القبائل المستقلة عن حكم العثمانيين.

ثم انتقل إلى الحامة أحد ضواحي العاصمة، و بعد مشاكل من الحكام العثمانيين و بعض مشايخ الطرق الصوفية و محنة و محاكمة توفي الشيخ عام1793م، و دفن بالحامة فكثر زوار قبره فنقل القبر لمسقط رأسه، و صار يعرف الشيخ ب " بوقبرين".

و ازداد أتباع الطريقة بعد وفاته، فبلغ أتباع الطريقة 156214خونيا في عام 1898م[44]، و من أهم مراكز الطريقة الحامة و آيت إسماعيل و زاوية صدوق بسطيف و قسنطينة و طولقة و أولاد جلال. و قد تزعمت الطريقة الثورات ضد الاحتلال الفرنسي.

الخاتمة:

نخلص من العرض أن الجزائر زخرت بطرق صوفية كثيرة، و ازداد النشاط الصوفي بها لما حظيت من علماء و مشايخ توافدوا عليها من المغرب الأقصى و الأندلس، و قد كان لها بالغ التأثير في المجتمع الجزائري باختلاف طبقاته، كما تفاعل أهل الطرق مع مجريات الأحداث و التحولات السياسية و الاجتماعية و تداول الأيام و الدول، فكانوا بين مساير و مغضوب عليه، لكن نشاط الزوايا و الطرق استمر في تعليم المجتمع مبادئ

الشريعة و تحفيظ كتاب الله تعالى، و الدراسة للتصوف الجزائري ينبغي عليه إفراد كل طريقة بما لها، ثم النظر في المتفق بينها و المختلف.

و نسأل الله تعالى في الختام تسيير البحث المتوسعة في كل طريقة على انفراد، و أن يرزقنا الفائدة من هذا البحث.

الهوامش

(1) **التصوف الإسلامي في المغرب**: علال الفاسي. مجلة الثقافة المغربية، العدد الأول: السنة الأولى، ذو القعدة 1389 يناير. ص38.

(2) **شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث**: عبد الحليم محمود. دار المعارف. ط( )، دت. ص(51-53).

(3) **البستان في ذكر الأولياء و العلماء في تلمسان**: ابن مريم؛ مراجعة: ابن أبي شنب. المطبعة الثعالبية: الجزائر. ط( )، 1908. ص108.

(4) المرجع السابق: ص112.

(5) **تاريخ الجزائر الثقافي**: أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي: بيروت. ط(1)، 1998. ص .

(6) **عنوان الدراية**: الغبريني. ص22.

(7) **أنس الفقير**: ابن قنفذ. ص12.

(8) هو: **يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي الكومي الموحدي، أبو يوسف، المنصور بفضل الله**: من ملوك **الدولة المؤمنية** في المغرب الأقصى، و من أعظمهم آثارا. ولد بقصر جده " **عبد المؤمن** " **بمراكش**. و بويع له بعد وفاة أبيه سنة **580** هـ. و وجه عنايته إلى الإصلاح، فاستقامت الأحوال في أيامه و عظمت الفتوحات.

- **الاستقصا**: ابن القاضي. ج1، ص(164 – 184).

(9) **تعريف الخلف**: الحفناوي. ج 2، ص(172 – 178).

– **البستان**: ابن مريم. ص 108.

(10) **التشوف**: ابن الزيات. ص319.

(11) **الوفيات**: ابن قنفذ. ص284.

(12) الاستقصا في معرف أخبار المغرب الأقصى: السلاوي. ج2، ص210.

(13) أبو مدين الغوث: عبد الحليم محمود. ص(52-53).

(14) شجرة النور الزكية: ابن مخلوف. ص164.

(15) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص94.

(16) أبي مدين الغوث: عبد الحليم محمود. ص55.

(17) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص40.

(18) عنوان الدراية: الغبريني. ص(62،63).

(19) أعلام المغرب العربي: عبد الوهاب منصور. ج2، ص16.

(20) عنوان الدراية: الغبريني. ص57.

(21) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص37.

(22) البستان: ابن مريم. ص108.

(23) نفح الطيب: المقري. ج7، ص137.

(24) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص18.

(25) نفح الطيب: المقري. ج7، ص137.

(26) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص19.

(27) نفح الطيب: المقري. ج7، ص139.

(28) التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين: الطاهر البونابي. ص(120-121).

(29) نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا. ص74

(30) البستان: ابن مريم. ص(45 – 50).

- الضوء اللامع: السخاوي. ج 1، ص 222.
- شذرات الذهب: ابن العماد. ج 7، ص 363.

- شجرة النور الزكية: ابن مخلوف. ص 267.

(31) فهرس الفهارس و الأثبات و معجم المعاجم و المشيخات و المسلسلات: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني؛ تح: إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي: بيروت. ط(2)، 1982. ج1، ص455.

(32) الأعلام: الزركلي. ج1، ص275.

(33) نشأة المرابطين و الطرق الصوفية: فيلالي مختار الطاهر. دار الفن الغرافيكي: باتنة.ط(1)، دت. ص37.

(34) Rinn :Marabouts et khounas.p173.

نقلا عن: نشأة المرابطين و الطرق الصوفية: فيلالي مختار الطاهر.ص39.

(35) مُعجَمُ أعلام الجزائِر : عادل نويهض. مؤسسة نويهض الثقافية: بيروت. ط(2)، 1980. ص62.

(36) الصوفية في نظر الإسلام: سميح عاطف الزين. دار الكتاب اللبناني: بيروت. ط(3)،1985. ص554.

(37) نشأة المرابطين: فيلالي. ص46.

(38) الصوفية في نظر الإسلام: سميح عاطف الزين. ص600.

(39) جواهر المعاني: الشعراني. ج1، ص126.

(40) نشأة المرابطين: فيلالي. ص53.

(41) المرجع نفسه: ص50.

(42) دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران: محمد بن يوسف الزياني. ص(92-93).

(43) **نشأة المرابطين**: فيلالي مختار. ص40.

(44) **دائرة المعارف الإسلامية: مجموعة من الباحثين**؛ تر: أحمد الشنتناوي و آخرون. ج10، ص80.